إشارات من (مدفن الأحياء)

مقدّمة:

تقرر (أقواس) في هذه الزاوية الذهاب إلى تلك المناطق السرية من المواجهة مع «المشروع الصهيوني»، النقاط العميقة الممتلئة بالدلالات والإشارات المذهلة، في الشهادات التي قدّمها مناضلون حول تجربة معتقل «أنصار»، أضاءت الذاكرة مساحة من الحرب، وعبرت في حقول مروية ومثمرة، وفتحت ثغرة في جدار الصمت الذي أحاط تلك التجربة الباهرة، وفي هذا العدد نذهب مع الكاتب والمناضل وليد الهودلي (سجين فلسطيني في سجون الإحتلال الإسرائيلية) إلى خط التماس الآخر، إلى تجربة المعتقلين العرب في السجون الإسرائيلية .

يأخذنا «الهودلي» من أيدينا ويهبط بنا درجات العتمة نحو مصائر وحيوات أخوة كدنا أن ننساهم، هناك في «الاعتقال» الذي يبدو مثل مدفن الأحياء، كما أحب الكاتب أن يسميه، وكما هو بالفعل، سيتسع المشهد ويذهب إلى منابعه واسمه وكلامه .

لبناني وسوري وعراقي... مصري ومغربي وأردني ويمني.... سبعة أقواس في الحكاية المتصلة .

أولئك قاتلوا إلى جانبنا وحملوا حلمنا/حلمهم. وغير بعيد عن كل هذا تبدو حدبات القبور في مقبرة المجهولين... حيث ترقد أجساد إخوتهم الذين اختلطت أسماؤهم ومصائرهم على الأرض الفلسطينية .

أسرى الحرب العربية – الصهيونية فوق أرض فلسطين، هم موضوع الكتاب الذي سيصدر قريباً لوليد الهودلي، والذي عاش التجربة العنيدة تلك، فقدمها مثل رسالة قادمة من المدفن .

وفي السياق ذاته، يواصل المعتقل الشاب نزار التميمي الحكاية عبر رسالة يبعث بها من سجن عسقلان إلى والده.. هذه النقاط الساخنة تبقى كذلك حتى تتكسر القيود، وتمارس عصافير الحرية رياضة التحليق ومعانقة الفضاءات الرحبة رحابة الحلم والحقيقة.

(المحرر)

واحة الديمقراطية

ياسر المؤذن

أنا لست «رون أراد».. أنا ياسر المؤذن أسير سوري عند «جهة معروفة»؛ «واحة الديمقراطية»، صورة العالم الحرّ والمتحضر في المنطقة!!

أظهرت «إسرائيل» نفسها على أنها ضحيّة الإرهاب، وأن دماء إنسانيتها قد سفكها سيف أعداء الإنسانية.. إنها مسكينة، مقهورة، مظلومة، مستباحٌ فيها مواطنها الذي لا يعرف إلا السّلام والعيش بأمان.. تمدّ اليد وغصن الزيتون للأيدي التي تريد لها الدمار والهلاك!!

وتقول: كان «رون أراد» في نزهة سياحية في سماء الله الواسعة فضلّ الطريق ومرَّ في سماء الجنوب اللبناني، سقطت طائرة السلام، ووقع «الطائر الميمون» في الأسر..

لغاية الآن، الجهة الآسرة مجهولة الهوية، أصبح «رون المبكى الجديد» الذي تُذرف عليه الدموع.. يثيرون قضيته في كل المحافل الدولية.. يطالبون به في كل اللقاءات السياسية، يحيون ذكراه، تجوب أسراب الطائرات العسكرية السماء.. يُرسل إليه صقور الجو تحيّاتها، تعلو الأصوات وتهتف الحناجر باسمه، تعرض أجهزة الإعلام المرئية والمسموعة الأبعاد الإنسانية لابنته وهي ترسم وتكتب رسالة إلى «بابا» .. زوجته التي يقتلها الأسى والحنين، أمه وأبيه وقلوبهم المقطعة على ولدهم الحبيب ... هذه هي الدولة التي تظهر حسّها الإنساني المرهف تجاه أسيرها الغائب!

لكننا نجدها تُغيّب هذا الحس تماماً، تظهر بوجهها المظلم، تلقي من السماء كسف العذاب والجحيم على رؤوس الناس في القرى والمخيمات، كما ألقت ما ألقت على «قانا» وغيرها، نجدها تلقي ويلاتها، أيضاً، على أسرانا في سجونها ...

أنا واحد منهم .. سمحوا لي!! بإحساسهم الإنساني النبيل!! بالاتصال التلفوني، لا أريد استثارة العواطف، ما أريده، فقط هو أن نتحسس «إنسانية» هذا العدو المحترم، خاصة إذا أغدقوا بها على «الغوييم» .

كان هذا الاتصال هو الأخطر والأعظم في حياتي، سمحوا لي بعد أن تقدمت بخمسة وأربعين طلباً عداً ونقداً . ماذا سأقول لأبي وأمي في هذا الاتصال الذي حُدِّد وقته لنصف ساعة،إنه الاتصال الأعظم، لأنه يأتي بعد انقطاع دام ثلاثة عشر عاماً ..ثلاثة أعوام في المقاومة في لبنان وعشرة في الأسر .. هو الإتصال الأخطر لأنني سوف أدهمهم بأسوأ نبأ سمعوه في حياتهم، سأُخبرهم بأوضاعي الصحية الخطيرة والمخيفة، كيف سألقي عليهم هذه الكارثة؟! مهما تلطَّفتُ فيها، ومهما كنت دبلوماسياً وبارعاً، إلا أنّ المضمون ستلتقطه قلوبهم، وتتجرع قسوته ومرارته، فمهما كانت يد الطبيب خفيفة وماهرة فإن الإبرة ستحافظ على وخزتها، وستوصل بلاغتها إلى أعماق المريض .

حددوا لي موعد الاتصال، وكلما اقترب الموعد تصارعت الأفكار .. ماذا أَقول لهم، وماذا أُخفي عنهم؟!

هل أُخبرهم عن حالة الفشل الكلوي التي أَصبحتُ أعاني منها؟! سيمطرونني بوابل أَسئلتهم؛ كيف حصل هذا؟! منذ متى؟! سيسأل أبي عن أدق التفاصيل .. هكذا كان منذ نعومة أظفاري فأنا ابنه البكر، أول العشرة، حظيت بحصَّة الأسد من الاهتمام والتقدير، كان يشاركني بكل شيء، يصحبني معه إلى مجالس الكبار، آخاني وصادقني منذ صغري، كنت أشعر أنني كبير في قلبه، سار معي سنوات عمري الأولى يوماً بيوم ولحظة بلحظة إلى أن فرقنا نداء الواجب، التحقت بالمقاومة في لبنان وتركته في معترك الحياة يعمل ليل نهار لتدبير شؤون العائلة الكبيرة، سيسألني الكثير، أما أمي فستسألني دموعها، سيصل نهر دمعها إلى السمّاعة التي أقبضها بيدي، كان الله في عونها وعوني على هذه اللحظات، لن تستطيع الكلام وسيستغل أبي نقطة الضعف هذه، يجب أن أُحضّر نفسي لأيّ سؤال، وحتى يكفي الوقت يجب أن تكون إجاباتي مختصرة ومفيدة؟

هل أُخبرهم عن إجراءات المحكمة التي نظرت في التقرير الطبي، وكيف تابعوا الإهمال المتعمد؟ ورغم التقارير المشوّهة فإن الحقيقة ظهرت كفلق الصبح بارزة للعيان .. نظروا في فترة التشخيص الأخيرة للمرض التي استغرقت خمسة عشر يوماً . كيف بهم لو نظروا في معاناة السنوات الخمس والتطمينات الكاذبة التي كانوا يتفنّنون في صياغة تبريراتها .. الإجابات جاهزة لأي مرض مهما بلغ .. كانت أعراض المرض الظاهرة للالتهاب في المسالك البولية، ومع ذلك تجد الإجابة: «مغص طبيعي»، «برد في الليل» .. عيادة كعجائز القرون الوسطى .. «أشرب الماء» .. «شاي وليمون» ..

عندما نقلوني نهاية المطاف إلى مستشفى «برزيلياً» في عسقلان، خلال ربع ساعة وبعد فحص دقيق كان الجواب الدقيق . فشل كلوي، تحتاج إلى غسيل كلى فوراً .. «قطعت جهينة قول كل خطيبٍ» .. سدت فحوصاتهم الباب على كل تبريراتهم المضلّلة، تساءلوا بعد أن أذهلتهم النتائج:

– أين كنت لغاية الآن؟!

– في السجن!
– ألم تعرض نفسك على الطبيب؟
– منذ خمس سنوات وأنا «رايح جاي» من وإلى العيادة .. ولم أصل إلى هنا إلا بعد خمسة عشر يوماً، وصلت معي الأمور فيها إلى درجة الانهيار الكامل ..
لغاية ليلة أمس كان الطبيب يماطل في تحويلي إلى المستشفى، عمل مني حقل تجارب .. قال سأسقيك كأساً من الشاي والليمون وأرقب النتيجة؟! ولما رأى أني تقيأتها وبدأت أفقد الوعي مع إصفرار الوجه وذهول العينين .. أوصى بنقلي الى هنا ..
أحدهم وبصوت خافت كل ذرة في جسمي سمعته بوضوح – قال لزميله:
– له عمر جديد .. لو فقد الوعي لما أمكن إعادته للحياة .. جاءنا في اللحظة الأخيرة لو تأخر قليلاً لكان الآن يحتضر في الموت السريري ..
لحسن حظي أن هذا التأخير الطويل في تشخيص المرض أمكن القضاة أن يلحظوا حالتي من خلال تعليقات أطباء «برزيلاي» المكتوبة: اتضحت لهم الأمور .. لم تعترض الجهات الأمنية على أطلاق سراحي لخطورة وضعي الصحي وهذا نادر الحدوث لأن احتياطاتهم يبالغون فيها إلى درجة الهوس كما هو معروف لكل من وصل محاكمهم ..
لم تعترض أدارة السجون عليّ وأنا أُشكل عبئاً كبيراً .. هزّ القضاة رؤوسهم وبدا عليهم الاقتناع بإطلاق سراحي فوراً والخلاص من هذا الهمّ الكبير .. وصل اعتراض واحد فقط من مدّعي عام الدولة «الياكيم روبنشتاين» .. رئيس الوفد الإسرائيلي في مفاوضات السلام سابقاً .. قال عبارة صغيرة ولكنها ضلّلت القضاة بحقدها وسوادها .. «إنه خطير على أمن الدولة» .. صدر القرار: «رغم صعوبة وضعه الصحي ورغم الأبعاد الإنسانية المأساوية إلا أنّ عليه البقاء في السجن فترة محكوميته البالغة خمسة وعشرين سنة، كما نوصي لجنة الثلث التي تنعقد لمناقشة وضعه بعد سبع سنين أنّ تراعي وضعه وتطلق سراحه نظراً لأنه حسن السيرة والسلوك في السجن» .
يُضرب المثل في قلوب الذئاب، لا أتصوَّر أنَّ للذئاب قلوباً مثل هذه، للذئاب قلوب مهما قست ولكني أشكّ أن يكون لهذه الكائنات قلوب رغم تشكيلاتها العصريّة الزائفة .. محاكم وقضاة .. لجان وتقارير .. عيادات ومذابح تذبح فيها الضمائر والقلوب ..
عن ماذا أخبرهم في هذا الاتصال؟! عن معاناة الخمسة عشر يوماً التي سبقت البركان؟!
في 15/7/98 انقضّت عليَّ أعراض خطيرة .. رجفة في اللسان والشفتين .. قيء متواصل .. فقدان للشهيّة .. سارعت إلى المشعوذين في العيادة .. فحصوا وقالوا بثقة مطلقة: «جفاف ناتج عن الجو الخماسيني وارتفاع الرطوبة» .. اعطوني فيتامينات – حسب ذمّتهم والله أعلم – مع بعض الحبوب التي تعالج الجفاف .. بعد ثلاثة أو أربعة أيام وانا مواظب على وصفتهم المقدّسة وأنتظر التحسن بفارغ الصبر، تضاعفت الأمور وأخذت منحاً خطيراً .. انتابتني تشنّجات في العضلات (قالوا لي: إنّ هذه ناتجة عن الرياضة .. عليك أنّ تخفف من رياضتك ..) شعرت حينها بخطورة الأمر .. يستمر مغص الكلى منذ فترة طويلة .. وكذلك المعاناة في البول

.. مع قيء وارتجاج الفم واللسان .
لعبت بي الهواجس .. انتابني القلب الذي هبط عليّ من كل جانب .. لا يمكن أن يكون كل هذا من الرياح الخماسينية ولا السبعينية .. فليست هذه المرة الأولى التي تمرّ عليّ هذه الرياح!!
إنّ الأمر خطير بلا أدنى شك .. ولا يستطيع أحد أن يقدّر الأمر أفضل مني .. قرّرت الصراع مع هذه العيادة النكدة .. كنت أتقدم إليها كطالب يد حسناء في بداية الأمر، يتمنّعون علي عدة أيام حتى أحظى أخيراً بأن يلقوا نظراتهم المشؤومة على هذا الجسد الذي يتقصّف ألماً .. قرّرت أن ألقي بكل ثقلي وأن أواصل نضالي معهم حتى أصل إلى العلاج المطلوب .. أشعر أن مرضاً خطيراً ألمّ بي ولا حياة لمن تنادي .
في الفاتح من شهر آب لم أستطع إكمال تلك الليلة الطويلة في غرفتي .. قيء متواصل – آلام حادة تضرب بسكاكينها من كل جانب .. دارت بي الدنيا .. شعرت بأني مركز السجن والسجن يدور في فلكي .. تقوقعت «الأبراش» على رأسي .. رأيت نفسي معلقاً في سقف الغرفة وأرضها اصبحت سقفاً .. تتأرجح الغرفة كبندول الساعة .. نقلوني إلى المشعوذة – العيادة – الساعة الثانية ليلاً .. وجدت فيها مشعوذها الأكبر .. الطبيب المناوب – طبيب زنازين التحقيق – أوصاني بشرب الماء – علمت فيما بعد بأن الماء في مثل هذه الحالة يُحدث أضراراً كبيرة .. والآن بعد إنجلاء الأمر يُمنع عني أن أشرب أكثر من لتر في اليوم والليلة .. سقاني في تلك الليلة قرابة الخمسة لترات .. وعلق لي إبرة التغذية لكن بلا فائدة تذكر، بل ازداد الأمر سوءاً .. طلبت منه تحويلي إلى المستشفى .. رفض وكأن أفعى رقطاء لذعته .. قال لي: أنك سليم مئة بالمئة .. لا يوجد داعي ..
مكثت يوماً كاملاً وأنا أنتفخ والألم يتخبطني من كل جانب .. طلبت منه إما العودة إلى الغرفة أو إلى المستشفى وحمّلته المسؤولية الكاملة عما يحدث لي .. أحضر لي الشاي والليمون كآخر شعوذة يمارسها علي ثم نقلوني أخيراً إلى المستشفى حيث وجدت التشخيص السريع خلال ربع ساعة .. كان مستشفى آخر، مستشفى بعيد عن أجواء السجون وطب الشعوذة ..
عن ماذا أخبر والديّ؟! هل استطيع أنّ أخفي عنهم هذه النتيجة التي وصلت اليها؟! هل وصلتهم أخباري عبر وسائل أخرى .. الصليب الأحمر ووسائل الإعلام الفلسطيني تناقلت بعض أخباري بإمكاني إخبارهم لو أنّ الأمر لم يصلهم عن البدايات التي مررت بها .. وفي اتصال قادم أو عبر رسالة سأكمل لهم بقية الحلقات .. أما أن أواجههم بالحلقة الأخيرة من المسلسل فالأمر سينقضّ عليهم كالصاعقة .. أبي قد يتحمل أمَّا أمي فهل تستطيع؟! أخشى أن تقوم حالة الفشل الكلوي عندي بإفشال كل حياتها عليها .. سترك يا رب ..
اتخذت قراراً حاسماً سأخبرهم عن البدايات، فقط .. الحلقة الأولى والثانية .. فيما وبقية المسلسل يتتابع فيما بعد .. رفقاً رفقاً يا حادي.
عندما أصابتني الإلتهابات في المسالك البولية في البدايات كان يسهل العلاج في مثل هذه الحالات .. لكن لم يكن تشخيص ولا علاج فانتقلت الالتهابات إلى الكلى نفسها .. غزتها بسرعة .. فرضت شروطها كاملة حتى أصبحت تعيد البول عليها كما يتلقى المهزوم مرارة

الهزيمة ..

كنت أعاني من آلام حادة فأتوجه إلى المشعوذة فتأبى أن تحولني إلى أخصائي الكلي والمسالك البولية رفضت بشدّة إجراء التصوير أو إجراء الفحص المطلوب . خافت من انكشاف عورتي!! نسيت نفسي ودخلت إلى الحلقة الثالثة .. يكفيهم أن أخبرهم عن التهابات في المسالك .. والكلى، ايضاً .. ونقطة .. البقيّة تتبع .. يعني هذا: خمس سنوات في كلمتين ..

سأطلّ عليهم عبر هذا التلفون السحري لأسحرهم بأخبار المشعوذة .. صورتي في خيالهم هي لذلك الفتى الذي يشتعل فيه لهيب الشباب وحماس الثورة .. الشاب الطموح الذي يحمل على كاهله عبء تحرير فلسطين وكأن فلسطين خُلقت له وحده .. فتى السبعة عشر عاماً .. هل تضيفون إليها عشرة سنين في الأسر وهذه تحسب بعشرين على الأقل .. أضيفوا معاناة الأسر ومعاناة المرض حتى تجدوا أمامكم كهلاً قد قارب الأربعين .. أطلب منكم أن تستنسخوا صورتي الاولى فلا تزال روحي هي روح ذلك الفتى .. فالعبرة في الروح التي تمتطي هذا الجسد الفاني ..

قرّرت أن أخفي عنهم الكثير .. قررت إخفاء عمليات الغسيل التي أُواظب عليها، منها اكتشاف هذا الفشل .. يوم بعد يوم .. أعكف أربع ساعات .. أُشارك فيها أعضائي الداخلية بعقلي وقلبي .. تصطف أحاسيسي، ومشاعري تعزف أوبرا حزينة .. تصلح لتشيِّع ميتاً يأبى مغادرة الجسد .. يأبى أن يُدفن ويزرع مكانه .. فالزراعة تحتاج إلى متبرّع وهذا يحتاج إلى انتظار في د و ر طويل ..

قال لي أحد الأطباء: هل تتصور إن وصلك الدور أنهم سيقدّمونك على يهودي؟! قال آخر: إنّ لك تسع أخوة في سوريا .. بإمكان أربعة منهم التبرع إليك .. ما عليك إلا استدعاء أحدهم .. قلت له: هكذا بهذه البساطة!! أُحضر أخي الذي لم أره منذ ثلاثة عشرة عاماً .. تنتزعون كليته الحرّة من جسد حرّ يعيش في بلد حرّ .. توقعونها في أسر جسد آخر كان قد وقع في أسركم، وترفضون إطلاق سراحه؟! كيف تفكّرون؟! تفكير الغاب يشطح بكم؟! لن أخبرهم عن يدي التي باتت لا تستوعب وصلة الغسيل .. وصلوا الشريان بالوريد فأصبحت دائمة الاهتزاز وكأن رجراجاً كهربائياً قد زُرع فيها .. أصبح الغسيل يتم من خلال وصل «البربيش» بشريان الصدر .

ماذا لو ارتسمت صورتي في أذهانهم وأنا ملقىً أربع ساعات أتبادل الآراء؟! أُنادي من أُناشد .. أَشكوا لهذه الآلات الضاغطة والقابضة بلا كلل أو ملل .. أُعطيها وتعطيني .. أحياناً أجد فيها أُنسي وتفريغ كتبي .. تأخذ وتعطي (كثير من بشر هذه الآيام يأخذون ولا يعطون) .. أحياناً أُخرى أجد فيها بلوة كبيرة تصبُّ في صدري المصيبة التي تفرض نفسها ولا مناص منها.

صورتي الآن ستقلب الأرض من تحتهم، ستطبق سماءهم على أرضهم فيسيرون في هذه الحياة بلا سماء ولا أرض .. أبي وأخوتي سيتلقون هذه الصورة بصمت حزين يرتسم على وجوههم .. وعند أمي وأخواتي ستنطلق جداول الدموع من مصادرها بطلاقة .. لن تحبس إلا حين يُفرج عني وتُزرع لي كلية حياتي ..

ليست حياتي وحدي وإنما حياتنا جميعاً ..
كانت صورتي التي أرسمها لهم عبر رسائلي قبل هذه الطامة هي صورة الشاب الرياضي، مفتول العضل الذي يملأ وقته بهجة ونشاطاً .. كانت أخبار دراستي الجامعية أصل بها إلى مواطن السرور في نفوسهم .. أُشعرهم بأن سنوات أسري لن تذهب سدى، وأنني سأعود إليهم يوماً من الأيام وبيدي الشهادة الجامعية .. لكن، خسارة .. قطعني المرض عنها الآن .. ما أشدُّ ما يتعسني هذا الانقطاع ..
اقتربت ساعة الصفر .. جاءت لحظات الاتصال تمشي متردّدة .. تقدم خطوة وتؤخّر أُخرى .. أحياناً أتمنّى أن تخطئ العنوان فأعفى من سيل هذه المشاعر الملّونة .. اختلطت فيها ألوان قزح الجميلة بالألوان السوداء .. وأحياناً أخرى أتحرّق شوقاً لسماع أنفاسهم مهما كانت، مبهجة أم حزينة ..
رفعوا لي السماعة بعد أن طلبوا الرقم .. يكاد قلبي يخرج من صدري .. يتراقص بين يدي .. جلدي يقشعر .. أرجلي لا تكاد تحملني .. أنقذني كرسي بجواري يشكو كثرة مقتعديه .. ألقيت نفسي عليه .. تحملني .. ضاقت بي قدماي ..
أذهلتني المفاجأة .. بعد الآهات والكلمات المتلعثمة مع أبي .. فاجأني بأنه يعلم كل شيء عني حتى أدق التفاصيل .. دخل صلب الموضوع مباشرة:
الفشل الكلوي ... وكأن تقريراً طبياً مفصلاً بين يديه .. قال: إن اخوتك كلهم ينتظرون الافراج عنك .. كلياتهم جاهزة وتنتظر الزراعة في أرضهم المباركة .. جسدك أرض حياتهم وأرواحهم .. يفدونك بكل شيء .. انزاح عني ثقل عظيم .. تنفستُ بعمق .. أراحني من هم تبليغ اخباري التي لا تسر صديق ..
انتقلت السماعة إلى أُمي .. لم أسمع سوى دموعها .. حاولت كل جهدي لأسمع كلماتها، لم أستطع .. الوقت يمشي سريعاً والبكاء يزداد ارتفاعاً .. كل كلمة مني تسكب النفط على لهيب عواطفها .. أشعلت النار في آباري النفطية .. فجّرت مخزون مشاعري التي اتقنت دفنها منذ زمن بعيد .. رجوت أن تعود السماعة إلى أبي لوقف سلسلة هذه التفجيرات في أرضي وأرضها الملغومة .
عاد صوت أبي، تنحَّت أمي بنحيبها الصاخب جانباً .. تكلّم أبي وكأن فرقة موسيقية خلفه تعزف لحناً حزيناً يضجُّ بالحنين والحبّ والحياة ..
دارت عقارب الساعة بسرعة .. لم يتبقّ من الوقت شيء ولم يتبق من الكلام سوى بث التحيات والسلامات .. عَانَقَ إخواني وأخواتي السماعة .. وزّعت عليهم كلماتي المقتضبة .. أنا بخير، معنوياتي عالية، لا تقلقوا، الفرج قريب الصحة مستقرة وجيدة، تُفرج إن شاء الله .. سأكتب لكم بالتفصيل .. مشتاق إليكم .. وانتظر رسائلكم .. مع السلامة .. في أمان الله .
كان هذا اليوم، يوم الاتصال بأهلي يوماً تاريخياً في مدار أسري .. ألماً بارزاً لن أنساه ما حييت .. اليوم يوم استراحتي وغداً «برزيلياً» والأربع ساعات على إيقاعات «البربيش» والغسيل الصّاخب .. في «واحة الديمقراطية» .

كانت رحلة عظيمة .. كأنها جرت من عالم الأموات إلى عالم الأحياء .. ورغم ما فيها من قسوة ومرارة، فقد كان

المشعوذة

عمر الخطيب

لها حلاوة لا أزال أجدها في قلبي .. كلما تذكّرت تلك الرحلة غبت في آفاقها الواسعة وآمادها البعيدة .. فأخرج مما أنا فيه بلا استئذان .. أغيب عن كل شيء مستذكراً آثارها الدائمة .. أقذف نفسي في أحضانها الجميلة .. أنطلق بمشاهدها الخلاّبة وأذوب في فتنتها بلا ضوابط ..

مسافة هذه الرحلة لا تزيد عن خمسة كيلومترات ولا تسرق من الوقت سوى ربع ساعة .. وفي الوقت نفسه أعترف أنها سرقت من وقتي ولا تزال تسرق عشرات، بل مئات السّاعات..

لبست في هذه الرحلة القصيرة / الطويلة لباس رجال الفضاء .. فسخاء الطبيعة وزخم المشاهد المتسارعة على بوابة قلبي تحتاج إلى الأكسجين الذي يكفي لتحميض هذه الصّورة .. لذلك فإنهم وصّلوني بجرّة أُكسجين عاتية ضموها للوفد المرافق لي ..

وبعد أن اجتاحتني الصورة المخيفة في مشعوذة السجن / «العيادة» التي أمضيت فيها أربعة عشر يوماً وأنا أتقلّب بين مشاهدها المرعبة .. كنت حبيس غرفة مظلمة .. رطبة، مكتظة بالروائح العفنة .. تشمُّ منها رائحة الموت .. تُطبق على أنفاسي من كل جوانبها .. الهواء راكد، ساكن لا حياة فيه .. الباب مغلق والشباك مفقود .. فتحة صغيرة في الباب .. تفتح وتغلق كلما أرادوا أن يتفقّدوا أرواح هذا الجسد .. إن كانت لا تزال متعلقة أم صعدت إلى بارئها في السماء .. كانت قبراً يوضع فيه الأحياء .. حالة من الضّياع .. رماديّة اللون وتستطيع أن تقول لا لون لها .. ماذا سيجري لك في هذه الغرفة السحيقة؟ فالداخل فيها مفقود والخارج منها مولود، هذا إن قُدّر له الخروج .

حظرتجول طويل فرضته «المشعوذة» على حركاتي وسكناتي .. وذاك النطاس البارع استأصلني من السجن كما يستأصل الزائدة الدودية ثم ألقى بي في أدغال طبِّه الأسود .. كنت في حالة صعبة داهمني ضيق النفس فأفرغ صدري من الهواء وجعلني كمن يغرق تحت الماء .. كان الطبيب لي بالمرصاد .. أحاطني بعنايته الفائقة فوضعني تحت الاشراف المباشر، بعيداً عن الشمس وبعيداً عن أعين الحسّاد ..

تمنيت العودة إلى غرفتي في السجن .. وجدت أنه أرحم من هذه الحجرة اللّعينة القابعة في طرف هذه «المشعوذة» .. وقّعت على أوراق الخروج من «مدفن» العيادة على مسؤوليتي الخاصة فموتي عند أخوة النضال ورفاق الأسر أفضل ألف مرة من كل لحظة موت أعيشها حبيساً في ما يسمى بالعيادة عند هؤلاء المشعوذين المهرة ..

لم يقدّر لي العودة إلى السجن، فبعد خروجي من المدفن وأنا أُناور الطبيب الذي بدا كرئيس كهنة، داهمتني أمواج

هوائية باردة .. نفث المكيف المعلّق فوق رأسه هواءه الثقيل .. فملأ صدري الخاوي .. شعرت وكأن معركة حمي وطيسها بين الهواء المتعفن الذي احتل مواقع استراتيجية أثناء وجودي في تلك الغرفة اللّعينة، وبسبب الهواء الجديد الذي حاول السيطرة على الموقف وفرض نفسه بالقوة .. لم تحتمل أرض المعركة هذا الصراع، فلم أستطع الصمود شعرت بالاختناق .. تكوّمت على بعضي وسقطت على الأرض كتلة لحم زرقاء تصرخ من شدة الألم .. أطلقت آخر صيحاتي قبل أن أفقد الوعي وكأني أُعلن نهاية آخر مشهد من مسرحية حياتي .. لا أَدري كم مضى من الوقت .. أتذكّر أن صوراً جاءتني تتراكض .. رأيت أمي، أبي، أخي، وأخواتي .. وكأني في حالة وداع نحو عالم مجهول .. ثم رأيت الأشباح من حولي .. فيما حفنة الكهنة يهيئون رجل الفضاء .. أنبوبة الأكسجين .. إبر وبرابيش .. شعرت عندها وكأني على سطح القمر أفقد الأكسجين .. أتابع أنفاسي بسرعة وأبذل الكثير لأحصل على القليل ..

حملوني إلى سيارة الأسعاف بعد أن قيّدوا يدي ورجلي .. هناك خوف من حالة انعدام الجاذبية على سطح القمر فأطير من بين أيديهم .. وكما قلت فقد زودوني بما يلزم لتحميض الصور .. إنها فرصتي العظيمة لأسترق النظر ..

إنها المرة الأولى التي أخرج بها من السجن منذ ثماني سنوات .. تناسيت آلامي وتعاليت على جراحي .. رفعت عيني أنظر .. التقطت الصورة الأولى ورحت أصول وأجول في عالمها ..

كانت الصورة الأولى: عملية ولادة قيصرية .. صورة خروجي من رحم الغول الذي سأعود إليه ثانيةً .. متى يكون الخروج الأخير؟ .. الله كريم!! هنا سيقف الأهل بجانب سيارتهم لاستقبال إبنهم بعد خمس وعشرين سنة وقد يريد الله أمراً آخر .. هناك أمي تنتظر الساعات الطوال لزيادة فلذة كبدها .. أنا، لقد أشعلت حبستي الشيب في رأسها .. كم دمعة نزلت وهي تشكو ربّها ظلم هؤلاء الأوغاد وهم يتفنّنون في وضع العراقيل .. وفرض شروط مذلّة ترضخ لها أمي ويطأطئ لها أبي رأسه كي يحظوا برؤية إبنهم ..

رفعت عيني.. نزعتها عن الصورة الأولى والتقطت الثانية:

شارع متحرك .. سيارات تسابق بعضها بعضا في سباق مجنون .. حياة متحركة على العكس تماماً من حياة السجن الراكدة، رجال يقودون تلك السيارات يختلفون عنّا .. لهم أشكال جديدة .. ذقون ناعمة وشعر أملس كشعر النساء في ألبسة مضحكة ثمّة بقع صفراء وخضراء تتوزع على قمصانهم .. يضعون نظارات دقيقة كأنها خططت على العين بقلم رفيع .. هل هم في «فورة» حول الدّوار؟! إنهم يدورون كما ندور في السجن .. لكن أحدهم يدور دورة واحدة ثم يمضي مسرعاً في أحد الخطوط المتفرّعة .. أما نحن فندور وندور كالبرغي الذي أغمي سنّه .. «البايز».

رفعت عيني وسحبت صورة ثالثة .. حدائق من الورد الأحمر والنبت الأخضر لا أدري ما هو اسمه ..

إنه مدخل مدينة عسقلان .. زيّنوه بالورد .. لا بد وأنّ هذا الأحمر القاني قد سقوه من دمائنا .. أمّا ذاك الأخضر القاتم فإنهم أشبعوه من الهواء الذي صادروه من صدورنا ..

كل شيء يتنفس .. ترفع الأشجار أعناقها عالية وتتنفس .. ينفثون عليها دخان سياراتهم ولا تأبه بهم .. تماماً كما يفعلون بنا .. يضربوننا بقنابل الغاز .. ولا نتأثر، تبقى أنوفنا شامخة، «نموت واقفين ولن نركع» ..

اعترف الآن أنهم، بعد تراكم وتكدس نتائج هجماتهم الغازية أو النازية على الأجساد الجيد في ذاك العالم الضيّق بعد أنّ وقعت فريسة للضعف الجسدي رغم بقاء الروح شامخة محافظة على مكانتها السّامقة ..
قد تذبل بعض تلك النباتات الطيبة كالتي رأيتها على حافة مصبّ مداخن تلك الدواب التي تمشي على عجلات ..

كانت بداية مرضي هذا إثر تعرضنا في سجن عسقلان إلى حملة قمع همجية سنة 1992 .. هذا العام الذي انفجر فيه السجن غضباً وألماً كانفجار قنبلة .. بعد أنّ ضغطوه بسياسات قمعية .. سياسات سحق واستهداف وإذلال .. عندئذ فتحوا «خراطيم» عبوات الغاز المسيل للدموع والمذهل للأعصاب .. أحدث ما وصلت إليه عقول الاجرام .. كانت فيها كثافة الدخان تفصلك عن كل شيء حولك فلا ترى أبعد من أنفك .. سجينا في سماء بيضاء من الدخان والغيوم .. كنّا فقدنا أعصابنا وجثونا تحت الأبراش ساجدين .. سجد معنا شعار «نموت واقفين ولن نركع» .. دوّخته كثافة الغاز التي لا ترحم .. كان هذا اليوم بداية الشيخوخة المبكرة التي غزت رئتاي .. خطفت صورة رابعة .. ندَّت مني ابتسامة عندما رأيت سيارة وقد انطفأ محركها وتجمع عليها الناس يدفشوها علَّها تشتغل من جديد.. تذكرت أول سيارة اشتراها أبي.. غشّوه فكانت لا تشتغل إلا بالدفش و «التعشيق».. حتى هذه السيارة انقطع نفسها.. تذكرت حالي بالأمس وحالي اليوم.. حال هذه السيارة الحديثة التي تنطلق بخفَّة ورشاقة وأين هذه السيارة التي ينتظر الناس سماع «جعيرها» بعد أن قُطعت أنفاسها كان لي جسداً يناطح السحاب بهمة وعنفوان تشهد لها ساحات التدريب.. كنت قد اكتنزت من القدرات القتالية ما يجعلني من أوائل الصفوف.. استيقظ في الصباح الباكر وأبدأ يومي بنشاط جذّاب.. أحث بنشاطي غيري من الشباب.. كنت بمثابة الدينمو الذي يمدّ الآخرين بالهمّة والحيوية.. أقودهم إلى الساحة حيث تدريب الكاراتيه وألعاب القوى المتنوعة.. أما اليوم فها أنا كتلك السيارات.. «اللي بحب النبي يزق» ..
كهلٌ أنا الآن رغم أني مازلت في بداية شبابي.. روحي الشابة التي لا تزال بفضل الله أحتفظ بها لا تقدر على تحمل أكثر من تلك الأربع وخمسين كيلو غراماً مما تبقّى من لحم وعظم..
بداية تراجع جسدي كانت عندما شعرتُ بالتعب في الدقائق الأولى للساعة الرياضية الصباحية.. كنت أتحامل على نفسي وأُجبرها على الاحتفاظ بالمكان المتقدّم من الطابور.. تضعضعت أنفاسي.. تراجعت «مكرهاً أخاك لا بطل».. صفاً وراء صف إلى أن بت محسوباً على طابور «الديتّا» طابور فرعي للركض لذوي القدرات المحدودة تحت قيادة أحد كبار السن.. لم أكن أُعير الأمر أي اهتمام جدّي.. بتواضع شديد ورغم قساوة الأمر تراجع نشاطي الرياضي.. برَّرت لنفسي هذا التباطؤ.. رطوبة جدران السجن المستنقع الصناعي الذي أُغرقنا فيه وكذلك التغذية السيئة التي نتلقّاها باتت تترك أثراً في أجسامنا ..
أفقت من صورة السيارة المقطوعة الأنفاس وخطفت أخرى.. دخلنا شارع المستشفى المطلوب.. يا للهول.. رأيت نهاية الشارع على مرمى البصر؟؟ رأيت البحر.. من بعيد رأيت زرقته الصافية.. الأمواج التي تتكسَّر في حضن الشاطئ الدفيء.. تأتيه راقصة كطفل مدلَّل.. تحنى عنقها وتستلقي في حناياه.. تحلِّف وراءها عناء سفرها الطويل وتنام نومة هانئة.. لا شك أنها تتنفس الصعداء.. تملأ رئتها لتعود رحلتها من جديد.. أيستطيع هذا المستشفى أنّ يملأ رئتي من جديد؟!

هواء البحر يملأ فناء الفضاء الرحب الفسيح.. ولكنهم هناك وعلى مسافة قصيرة يصادرونه.. يحشرون الناس في الغرف الضيقة..
وقفت السيارة على باب المستشفى.. حملوني عبر ممر محفوف بالشجر.. وأيُّ شجر.. وجدت نفسي غارقاً في الصور.. الأشجار الجميلة ألقت بضياء عيونها على هذا الجسد الصريع.. سمعت بفطرتها السليمة حشرجة صدري، ربما ظلمتها فقاعات الهواء الفاسد الذي يخرج من فمي، ربما أدركت ما أُعاني منه فانهالت عليَّ ببعض هوائها الطاهر.. رددت عليها تحيتها بابتسامة متواضعة.. رأيت فيها الحرية التي شعرت بأنها أصبحت بعيدة المنال... أصبحت أشعر بأنّ الموت أقرب اليَّ من حبل الوريد...
ما هذا الشجر الذي لم أَره من قبل.. شجر زمان ما قبل الحبسه.. زيتون، تين، لوز، كله شجر مبارك ولكن هذا يختلف.. شجر يناجي الروح ويُعمل سحره بسرعة... صفحات من الورق الأخضر المدبَّب.. تصطف الرزمة منها بشكل أفقي.. تجتمع المجموعة وكأنها حول مائدة.. وتنتصف هذه المائدة وردةٌ حمراء تقف مغنيَّة وسط هذا الحشد الأخضر.. تسمع وتشم رائحة هذا الفناء.. ما اسم هذا الشجر؟! من أين أتوا به؟! إنّ تخيل شجرة واحدة وسط ساحة السِّجن كفيل بمداواة جروحنا.. كانت نخلة تناجينا ونناجيها فقطعوها، قطع الله أعناقهم..
سلط الناس كاميرات قلوبهم على هذا الجسد المكبّل.. عفواً رائد الفضاء الذي يخشى عليه من انعدام الجاذبية وانطلاقه في الفضاء بلا حدود؟؟ ماذا تراهم يقولون؟! سجين عربي!! اذن مخرِّب، تحضره شرطة السجن للعلاج.. يقولون بما أننا دولة متحضرَّة.. لماذا يكبّلونه بهذا الشكل القاسي؟! ويقولون: كل دول العالم تفعل هذا.. ضروريات أمنية.. شرطة غلاظ شداد.. قلوب لا ترحم ..
فتيات ونساء جميلات. شبه عاريات؟ يتنفَّسن الهواء بسهولة ويُسر.. يتنطظن على الأرض.. أجسام صغيرة، بيضاء غضَّة، طرية، يستنشقن جمال الطبيعة.. نساؤنا أكبر حجماً وأقل حركة.. أَقوى سمتاً وأثقل رجلاً.. يمتطين الأرض وكأنَّهم جُبلن فيها.. ماركة مسجلة وليست مزيَّفة كهؤلاء.. فتاة تمشي وتتكلم مع نفسها.. أمعنت النظر.. وجدتها تحمل على أُذنها قطعه بلاستيك صغيرة.. هذه التي يقولون عنها «بلفون»؟!
شقوا بي الطريق عبر أروقة المستشفى.. كلما أَدخل ساحة تتلقَّفني العيون تماماً كما يحدث لبطل فيلم سينمائي .. أرمقهم بنظراتي الخابية.. واشعر بالغبطة.. أَصبحتُ محط أنظار الناس خاصة الأطفال.. الصغار جداً.. منذ فترة طويلة لم أر هذه الكائنات الصغيرة.. رأس صغير كحبة الرَّمان.. عيون قطط زرقاء وخضراء.. البراءة تضيء جنبات وجداني.. تمنيت لو أنَّ صحتي معي ويتاح لي ولو لمرة واحدة أن أقبل طفلاً وأمرِّر راحة يدي على رأسه الصغير.. لا يوجد أَيَّة حالة عداء بيني وبين هؤلاء.. عداؤنا مع آلة الإجرام الحاقدة التي تنهش أجسادنا وأعراضنا ليل نهار..
كبَّلوني بسرير الشفاء.. يعني لو كتب الله لي الشفاء فسيكون شفاءاً مكبلاً.. دخلت معترك العلاجات والفحوصات ست ساعات متواصلة كانت روحي ترفرف فوق سريري، تتردد ما بين الموت والحياة. كانت نظراتي التي أَلتقطها خِلسة نظرات مودِّع. أمدّ الله في عمري.. عدت ثانية حتى اذا استيأسوا من تحسِّن حالتي شحنوني إلى مستشفى الرملة. هذا القسم المميَّز بتفانيه في تحقيق أفضل شروط الإقامة في قبر جماعي، تعمر أسرَّته بأجساد أنهكها الأمر والقهر.. حالات مرضية منسيَّة خلف القضبان.. تبوَّأت موقعي بين بقايا اللحم

والعظم من خيرة أبناء شعبنا.. يودّع أحدهم الآخر كل ليلة خوفاً، يتبادلون نظرات الوداع الأخير.. في هذا المنفى تموت كل لحظة.. تموت من كثرة ما ينسونك.. من روتين الحياة، من الضغط النفسي وانعدام العلاج المناسب.. القهر والمرض يلتهمك ببطئ.. قطرة وراء قطره أشق على النفس من بذل التَّضحية دُفعة واحدة.

والآن وبعد هذه التجربة المديدة على مدار خمس سنوات بعد رحلتي الأولى إلى مستشفى عسقلان لم يتبق في صحبتي سوى ذكريات، جهاز تنفسي كهربائي يبث في صدري همومه الخفيفة أحياناً والثقيلة أحياناً أخرى.. جرَّة من الاكسجين أتخيَّلها أحياناً كبرميل بارود يوشك على الانفجار.. بخاخات تطلق شهيقها الطريّ في محاولات يائسه لمحو آثار سحب الغاز السام الذي استوطن هضاب صدري العالية.

زجاجات الدواء والأقراص التي أتجرع سمومها في الصباح والمساء.. هي حصيلة ما أهدتني إيّاه سنون المرض حتى الآن إلى جانب العجز الرئوي وصعوبة التنقل من مكان لآخر مهما كانت المسافات قصيرة..

إنَّ ما يميز شريط ذاكرتي بعد هذه الرحلة الطويلة في أسر المرض وأسر السَّجان، هو أني أستطيع أن ألمح بوضوح إرادتي القويّة التي بقيت على حالها.. لم تنثن ولم تتكسَّر أمام هذه العواصف العاتية.. بقيت على حالي أسيراً صاحب رسالة مميَّزة من الكفاح تتطلّب عمقاً في التميّز في الأداء والمواجهة، وعندما أضفتُ بعداً آخر وأصبحت أسيراً ومريضاً في نفس الوقت.. حملّت رسالتي الكفاحية بعداً آخر، فَزْدت تميُّزاً على تميّزي.. شعرت بالتَّحدي في أعلى درجاته.. كان عليَّ أن أبتعد بقوة عن صفوف الضَّعف أمام اختيار المواجهة؛ لأنّ في ذلك ميلاً لصالح برنامج العدوّ النقيض .

عندما تشابكت مهمات عملي النضالي بمهمات ما أحتاجه من رعاية علاجية ضاعفت مستلزمات نهوضي وحضوري بواقع الأسر... لم تطق نفسي التنازل عن أيّ شيء كنت ملتزماً به قبل مرضي.. حتى الجامعة المفتوحة حافظت على التزامي بها رغم ما تحتاجه إلى جهود مُضنيَة.. لم أتنازل عن شيء سوى الرياضة التي لم يَعد جسمي يتحملّها على الإطلاق.. كنت أنظر من نافذة غرفتي على ساحة الرياضة كأسد قعدت به شيخوخته عن المشاركة في رحلة الصّيد والسعي في مناكب الأرض .

حافظتُ على برنامجي الذي رسمته أول الحبسة.. وإذا كانت الإرادة لا تعرف أي حدود فعلى ما يبدو، فإن الجسد الذي هو الامتداد المادي للروح وما تحمله من قيم يعرف معنى الحدود... يتراجع أمام تدّني إمكانيات مواجهتك للبرنامج المادي والمعنوي المدمِّر الذي يريده لك عدوك... قد تجد نفسك أمام تراكم هجماته الشرسة فريسة للضعف الجسدي ورهينة للتناقض الذي يضع قاتلك في ثوب الملاك الذي يسعى لشفائك وضمان أمنك الصحي... هذا التناقض الذي ربما لَن تلحظه إلاّ بعد تقدمك في الاعتقال حينما ترى الرِّسالة الانسانية تُدنَّس يوم ترى الممرِّض والطبيب يتمترس خلف مدفع غاز خانق يوجّهه نحو صدرك .

التقيت به في مستشفى الرملة.. لم أَره ولم أسمع أخباره منذ ست سنوات.. كان أبو نبيل غارقاً في عالم النسيان.. قابعاً في ذاك السِّرداب الذي قسَّموه إلى حجرات ضيّقه «إكسات».. كل «إكس X» يتقاسمه اثنان في بئر السبع قسم (8) يثوي في عالمه الزَّاخر بالذكريات، يُسافر بعيداً في الزمان والمكان.. يصل إلى بغداد بنخيلها وأنهارها، بمآذنها وأسواقها، بمعالمها التي يملؤها التاريخ

عراقي في سرداب السبع

علي عباس البياتي

بأنفاسه.. يزور المشاهد المعمَّدة في روحه، ويعود إلى الثَّغرة التي يرابط فيها.. الحجرة الضيقة.

حشرت له العالم بقبس يسير من الضُّوء والهواء.. ضاقت عليه الأرض بما رحبت ولم تعد تفسح له الاّ تفصيلاً على طول قامته.. ويسافر في الزمان من طفولته في بغداد إلى بداية شبابه في بيروت، ثم يُكمل الشباب وبداية الكهولة في عالم السجون الضيِّق..

أول ما نسأل عنه هو صحَّة الرجل.. فالشيب الذي جلَّل شعر رأسه ولحيته قد يخفي وراءه المفاجآت.. وسنون السجن تُغيِّر ولا تتغيّر.. تأكل من أعمار سكانها ولا تشبع.. سمعت أزيز صدره وهو يتنَّهد قبل أن يجيب.. ابتسم ابتسامة حاول أن يريني فيها شبابه وقال: الحمد لله على كل حال.. تذكر عندما كنا في عسقلان العام (93) لم أكن أعاني من شيء سوى التهابات في الكلى ومشاكل انسداد البول.. تعايشت معها منذ بداية «الحبسة».. أصبحت من أعزَّ أصدقائي.

بعد خمسة عشر عاماً استطاعوا أن يشخّصوها.. بعدما جربوا عليّ كل ما لديهم من أدوية.. قالوا لي أخيراً: بأنّ الكلى عندي ليس في مكانها الطبيعي.. قلت مستغرباً: «خمسة عشر عاماً» منذ بداية اعتقالك سنة (79)، ولغاية (94) وصلوا إلى تعيين سبب معاناتك من آلام الكلى.. لا أكاد أُصدق أذني.. قلت: خمسة عشر عاماً أم يوماً .

– خمسة عشر عاماً.. ومنذ خمس سنوات والتنقيب جارٍ عن أمراض أخرى، صبرتُ عليها كثيراً وكان لا بدَّ في النهاية من الكشف عنها .

أذكر أنّ الكلى لم تكن تكترث بها كثيراً.. أدرت لها ظهرك.. واصلت نشاطك على أكمل وجه.. كنت رياضياً متميزاً . بالطبع فأنا عسكري قبل كل شيء.. لم آت من أجل نزهة أو «شمة هوا..» لقد أكلت معسكرات التدريب من أجنابنا. ما زلت أعاني من شريان البلاستيك المزروع في ساقي منذ كنت في بيروت قبل نزولي دورية إلى فلسطين،

كتب الله لي الوقوع في الأسر.. واصلت نشاطي بهمّة عالية.

حافظت على صحتي وأعدتها إلى صوابها بعد أن تضعضعت أثناء فترة التحقيق العسكري الضعيف الذي أذاقونا فيه الموت مراراً ...

أسمع لصدرك صوتاً... أنفاسك تقطع كلماتك ولا تدعك تكمل جملة .

منذ خمس سنوات داهمتني عدّة مرات أهمها الأزمة التي أشعلت النار في صدري أحياناً أشعر وكأنّ ملك الموت يقبض على روحي وينتظر إذن ربه.

أخيراً ظهرت علينا آثار القمع والغاز الذي كانوا يعموننا به.. وعندي آلام في المعدة وضعف في العيون والبواسير كفاك الله شرّها.. وأخيراً، وإن شاء الله آخراً السكري الذي اجتاحني بعد الاضراب الأخير السنة الماضية .

إذن تحتاج إلى (أفرهول) .

هكذا قالوا لي.. عندي عدة فحوصات جئت من أجلها إن شاء الله .

أكملت العشرين عاماً «أبو نبيل»؟!

في شهر 11 القادم 18/11/99 .

كيف مضت العشرون عاماً؟ هزّ رأسه، بدت عيناه وقد غرقت في بحر ذكرياته.. يصارع الموت ويسبح عكس التيارات الجارفة.. البحر يجرّه بشدة نحو الأعماق السحيقة وهو يجدّف بكل ما أوتي من قوة.. تنقضي عاصفة وتأتي أُخرى.. تأتيه الأمواج العاتية من كل مكان فيعلّق عليها.. يمتطيها قبل أنّ تمتطيه.. يهزّ رأسه بعد كل موجة. يتساقط عنه الماء والعرق – يبتسم للبحر والحياة. ماذا أقول عن العشرين عاماً؟ أُحدّثه بالتفصيل المملّ أنه سجين مثلي ولن يطيق سماع وتفصيلات السجون .. أحدثُّه عن مسلسل مقارعة السَّجان لن تنتهي ولو بقينا على الجلسة هذه عدة أيام.. أحدّثه عن علاقات الناس في السجون، الفصائل والأفراد. كيف كانت قبل تبادل سنة (85) وكيف أصبحت بعده.. كيف كانت قبل أوسلو وكيف أصبحت بعده وبعد تداعيات الافراجات والاحباطات.. أحدّثه عن تجربتي في عسقلان أم في نفحة أم في جنيد أم في السبع.. عن رحلتي مع المرض وعلاجاتهم التعيسة.. عشرون عاماً أتيه ولا أدري من أين أبدأ .

لاحظت شروده من هذا السؤال فحدّدت سؤالي.

أخبرني عن أبرز ما ترك فيك من أثراً بليغاً؟ انطلق لسانه بسرعة : زيارة أمي.. يا لها من زيارة ما زال وجداني يناطح السَّحاب بها.. ما زالت أمي أمامي منذ ذلك الوقت.. منذ سبع سنوات، تصوَّر لم يسمحوا لي بزيارتها إلاّ بعد ثلاثة عشر عاماً.. كانت تسافر من بغداد إلى الاردن فيمنعونها من دخول فلسطين تستقصي أخباري من الاردن.. تذرف دموعها وتبعث سلاماتها وتعود.

توفي أبي في حادثة ملجأ العامرية أثناء القصف الأمريكي على بغداد العام (90) – جاءني الخبر بعد ستة شهور.. وكانت زيارة أمي بعد ذلك بسنة ونصف تقريباً عندما وصلت شيك الزيارة.. ورأيت العباءة السوداء التي تجلّل روحها الطاهرة.. طار عقلي نسيت نفسي صحت! هيَ إمي! هي إمّي! هجمت على الشيك وغرقنا في دموعنا.. رغم أني كنت مقرراً على نفسي بأن لا تنزل دموعي.

بعد أن هدأت العاصفة.. لم تهدأ خفَّت قليلاً وعادت.. انفجرت القلوب بأحزانها المخزونة.. أخرجت كل رصيدها .. أسأل ما هي أخبار عمي فلان– توفاه الله.. أخبار عمتي فلانة؟ توفاها الله. أخي.. ذهب إلى الحرب ولم يعد.. زيارة شُحنت بأخبار الوفيات ..

كانت زيارة رأيت فيها شيخوخة أُمي– ذوت نضارة وجهها وغاب نور عيونها في ثنايا السنين التي تركت بصماتها بوضوح خبت فيها شمعة حياتها وهي ما زالت في الحياة تُعارك الموت وتصبّر نفسها.. رأت أمي شيبي، رأت عجزي وراء هذا الشيك المقيت فلم تتحمّل.. ضجّت بالبكاء.. حاولت معها بدموعي الصامتة ولم أفلح– توسَّط أحد الشرطة لضابط الأمن بأن يسمح لي بالسلام عليها دون شيك، رفض بشدّة، طلب منه تمديد الزيارة ورفض.

ساعة بكاء انقضت بسرعة لم ندر كيف نبدأ أو من أين نبدأ ضاعت الأفكار من رؤوسنا وتردّدت الكلمات في حلوقنا. قلتُ: وبعد ذاك لما لم تعد لزيارتك مرّة أخرى؟ منعوها، تأتيني أخبارها عندما تأتي إلى الأردن من أجل السؤال عنّي أو عندما نعتصم على باب الصليب في الأردن عندما تسمع بإضراب في السجون، أحد المرّات أخبرونا بزيارة الدوريات.. حضّرت نفسي.. تهيّأت لأمي، تعلم كيف تكون هذه التهيوءة.. ترتيبات نفسية ومعنوية.. هيجان لعواطف اللقاء مع ست الحبايب، ما تبقي لي في هذه الحياة، المهم وصل الزّوار، نزل الشباب ونزلت معهم.

تعانقت الأصابع والتقت الأرواح، تذكرت ندائي الأول «هيَ إمي» – لم أجدها– علِق لساني في حلقي الجافّ، خرج قلبي من صدري.. تدحرج عند قدمي، قالوا لي: لا يوجد لك زيارة.. برميلاً من الماء المثلّج ألقوه على رأسي، وددت لو أقتل هذا اليهودي الذي قال هذه الكلمة اللعينة.. إنّ هذا غير كافٍ لردّ اعتباري، عدت أدراجي أحمل أحزاني حيث كنت قبلُ أسابيع طويلة.

لم تحاول الاتصال التلفوني وتعلم أنهم سمحوا للدوريات بالاتصال ولو مرّة كل سنة.

حاولت، قدمت طلبات كثيرة قالوا لي: مستحيل أنت من العراق من دولة معادية – قاتلهم الله – إلى متى؟

بعد أنّ تنتهي المؤبد يسمعوا لك؟ ألم يشبعوا من العشرين عاماً؟! عاد إلى بحر العشرين عاماً يحدث نفسه من جديد. أحدثه عن آلامي التي تقاطعت عليَّ من كل حدب وصوب، أحياناً أراها قد مرّت سريعة خاصة عند أيام الشباب والنشاط والمواجهة– كان القمع يزيدنا عزماً وتصميماً، يشعلون نار التحدي فتحرق كل سياساتهم تحت أقدامنا.

في سنة (91) قمعونا مرّتين متتاليتين، الغاز والرصاص المطاطي، كسرنا الأبواب وحطّمنا كل شيء، ارتوينا غازاً حتى النُّخاع، حققنا بعض ما نريد ولم نخسر شيئاً، لم يكن هناك ما نخسره.. المواجهة والتحدي تنسيك همومك.. تشعر بقوتك عندما ترعى عدوك رغم ميزان القوى الذي يميل لصالحه، يتهاوى ويبحث عن حلول الوسط، تشعر بالعزة وحلاوة النصر.. أحياناً أخرى أرى اللحظة الواحدة وكأنها قنطار من السنين تلقي بثقلها على رأسي خاصة تلك اللحظات التي يختلف فيها، الأسرى ويدورون حول أنفسهم –

أصدقك القول.

مرّت السجون بأيام سجَّل عليها بسواد اللاوعي وتقهقر الروح الأخوية أمام الزحف الأسود للبلديات والتميز بين الداخل والخارج أو بين الجنوب والشمال أو بين فصيل وآخر، شيَّبتني هذه الأوقات القاسية ولكن الحمد لله كلَّ مرّة كان يعود فيها الوعي للسيطرة على الوضع، واليوم إذا قارناه بالأمس فالأمس أفضل من اليوم، يوجد حالة من الترهّل والإحباط لا بدّ من الوقوف لها ومحاولة العودة إلى الجدّ والاجتهاد، قلت له بعد أن أوقفتني هذه الكلمات الحريصة. ودقّت ناقوس الخطر في روعي: لم تثنِ عزمك هذه الأمراض التي ألّمت بك، ما زالت آمالك كبيرة؟! .

بالتأكيد لأنّ الروح ما زالت على حالها، كان فضل الله عليَّ عظيماً.. فتح الله عليَّ باب الدراسة، قرأت الكثير. وكان للدراسات الدينية والروحية الأثر الكبير على مسار حياتي وعلى قوة معنوياتي.. حلّقت بروحي عالياً، المرض يصيب الجسد ولا شكّ أنّه يؤثر، ولكن بفضل الله عندي المعنويات ما يغطِّي آمالي وطموحاتي ويزيد .

سرحت في عالم هذا الرجل، بالتأكيد قد أخفي الكثير... على عادة الرجال الذين يعملون في الخفاء وفي العلن يتظاهرون بأنهم لم يقدّموا شيئاً.. أخفى عني المعركة البحرية المتميزة التي اعتقل على أثرها، دورية بحرية فدائية اخترقت دفاعات العدو وأصابت فيها مقتلاً، نسي نفسه في ذكر الشهداء.. عدّد لي الشهداء الذين التقى بهم.. ما زالوا يظلُّون روحه بأرواحهم.. حتى أنّ أمراضه التي قطعته بآلامها ليل نهار، مرّ عليها مرّ الكرام.

المماطلة المميتة في العلاج وتشخيص الأمراض أزعجته، ولكنها لم تفلّ من عزيمته.. طلبوه لتصوير المعدة ثم بلّغوه بإعادته إلى سرداب السبع.. سأل عن الفحوصات الأخرى التي وعدوه بها.. سيأتي وقتها، متى؟! عندما يأتيك الدَّور.. حبالهم طويلة ونفسه أطول والله المستعان على ما يجرمون .

إلى والدي مع الأغراض ..
كتاب لنقرأه

مقدمة

ننشر هنا رسالة بعث بها المعتقل الفلسطيني نزار سمير شحادة التميمي المعتقل منذ العام 1993، والمحكوم بالمؤبد في سجون الاحتلال، بعثها لوالده د. سمير شحادة رداً على كتاب الأخير الذي نشره «بيت الشعر» الفلسطيني العام 1999، وكان بعنوان (إلى ولدي مع الاعتذار).

ننشر هذه الرسالة لأسباب عديدة؛ منها: إبراز نموذج من رسائل المعتقلين والأسرى الفلسطينيين والعرب إلى ذويهم وأصدقائهم، ولإضاءة الجوانب الفكرية والسياسية والنفسية والإبداعية التي تحملها هذه الرسائل، ولأنّ هذه الرسالة تقدم مداخلتها على كتاب إبداعي أصلاً، خصوصاً أنها بقلم معتقل تمّ القبض عليه عشية استشهاد والدته على أيدي المجندات الإسرائيليات، وعشية توقيع اتفاقية «أوسلو»، وعشية تجاوزه العشرين من عمره.

(المحرر)

ما زال الضباب يا والدي .. يعيق الرؤية

بسم الله الرحمن الرحيم

والدي الحبيب ... أيا قلباً من حنان .. أُقرِئُكَ السلام .. وأقبّل جبينك الشامخ، وأقول:

بعد أن امتلأت بئر النفس السحيقة بمنسوب حزن فاق حدّ الإشباع، ففاضت به جنبات الجسد النحيل، وضفاف الروح الهلكى المسكونة بهمٍّ كبير يعذّبها .. بعد هذا تمكّنت مؤخراً من أن أتجرّأ لأنبش في خصوصية جرحي الدامي، معزّياً نفسي بصغر هذا الجرح، أمام دموية جرح عام يفوق جرحي كِبَراً وعظمة، أمام جرح شعب نازف يمتد بطول وعرض هذه الأرض الجميلة التي عذبتنا وأشبعنا عشقها عذاباً..

نعم يا والدي، في خضمٍّ ما ناء به كاهل الوطن من آهاتٍ وفواجع .. وفي ذروة تألّق الموت على ثرى أرضنا الطاهرة، موحّداً صفّ الجميع تحت وطأة قسوته، وساقياً للحلوق العطشى مرّ مائه من جرارٍ طفحت دماً مسفوحاً نزفتها أجساد طاهرة

سقطت وترامت هنا وهناك، لتجعل من خصوصية الجرح وشوكته ما يمكن هضمه على مضض .. فأحزان الفرد تبقى صغيرة أمام مآسي الشعب، ولقمة جرحنا الشخصي من الممكن هضمها رغم ما وصلنا إليه من مرحلة فاقت حدّ الإشباع في نزف الجراح .. أمّا جرحنا العام وهمّنا الكبير فهو رغيف خبز أسود قمحي، عُجن بدماء وماء مرّ، ودقيق من حبات قمح نبتت سنابلها في أرض بركانية شاحبة اللون .. وخُبز على نيران أفران الموت التي تشعلها أفواه بنادق الغزاة القاتلة .. وكما ترى فهذا الرغيف أكبر جحيماً من لقمتنا، وأمر مذاقاً منها، فيصعب علينا هضمه وابتلاعه ..

أمام جرحي وجرحي يا والدي وقفت، فدفعتني الجرأة إلى أن أقتحم أسوار نفسي، مبدداً مخاوف وصعوبات واجهتني على امتداد سنتين من الزمن، وبالتحديد منذ ذلك الوقت الذي جلست فيه أمامك على شبك الزيارة فقلت لي: لك يا ولدي مع الأغراض كتاب لتقرأه – «إلى ولدي مع الاعتذار»– حينها فرحت كثيراً، لأنني كنت في أمسّ الحاجة إليك .. لكلماتك، لحضورك، لقلبك ونبضك الدافئ الحنون .. وعدت إلى زنزانتي مبتهجاً مسروراً، فأخذت بين يدي كتابي الصغير بلهفة وشوق ورغبة عالية بأن أغوص فيه بسرعة البرق .. وفجأة تغيّرت حالة النفس، وتبدّل جموح الرغبة في السفر بين السطور لخوف شديد لم أستطع حينها الوقوف على حقيقة أسبابه .. لم أجرؤ إلاّ على قراءة عنوانه ومقدمته، والرسالة الأولى فيه وبعض من السطور في الرسالة الثانية، وحينها تناثرت جرأتي أشلاء.

لم أستطع لملمة نفسي، فأغلقت كتابي وروحي معلّقة فيه، ووضعته في مكان أمامي، أشاهده كل يوم ولا أتمكّن من أن أمدّ يدي نحوه فآخذه لأبحر فيه .. خفت يا والدي أن أركب بحر الجرح فأغرق فيه، فأوّل السطور أشعرتني أن جرحي ليس فقط بالبحر، وإنما محيط ممتد لا نهاية له، وأكبر أكبر من إمكانية أن أبحر فيه، وأيقنت أنّ الجرح لا يمكن دمله إلا أمام عظمة جرح آخر يفوقه كبراً واتساعاً ونزفاً فركنته مرغماً للزمن – وانتظرت وكأنيّ على يقين بأنّ القادم هو تأشيرة للعبور ومفتاح للدخول، إنه عرس الشهادة وقوافل الـــــــــشـــــــــــهـــــــــــداء،

جرح الوطن الأكبر الذي أعطاني دافعية التقدم وجرأة الاقتحام – فتناولته بكثير من اللهفة وكثير من الرهبة، أيضاً، ورحت أقرأ، رحت أبحر وأغوص، ودفنت نفسي وقلبي بين السطور، وتربة المعاني والدلالات الخصبة التي تضمّنتها نصوصك الأدبية الرائعة، شدّتني الأحداث بقوّة، وأعادتني إلى لوراء، فعدتُ سبع سنوات وكأنّها الأمس القريب الذي لم أزل أقف على عتبة بابه، مع سردك الأحداث عدت لأعيش ماضياً لم أعشه، وأرقب عن قرب قساوة المشهد، ودموية الأيام، ومع النهاية أسندت رأسي إلى الجدار بعد أن عبّأت من نبع الآهات صدري، ورحت أذرف الدمع وأبكي في سكون الليل وحدي .. بعد أن عزّ علي إيجاد صدرٍ حنون أرمي برأسي عليه لتبلله وترويه دموعي..

والدي الحبيب ..

«إلى ولدي مع الاعتذار»، سارت رحلتي معه على النحو التالي ..

عندما قلت لي على شبك الزيارة: لك عندي يا ولدي كتاب تقرأه ، عرفت أنه يحمل مذاقاً خاصاً، وعندما استقبلته، استقبلته بشغف وشوق، ولهفة وخوف، وكأنّي أحمل بين راحتي قلبك الكبير، وما أن قرأت بعضاً من سطور المقدمة، وقبل أن أعرف كاتبها، عرفت أنه كتبها وهو قريب من ميدان الجرح، لأنّ درجة حرارة الكلمات والأحرف تدلّ على أنها تنبض بالحياة الدافئة، وعندما عانقت عيناي اسم «رامي» أدركت جيداً نبرة الصدق المنسجمة مع قول الشاعر: «لا

يعرف الجرح إلاّ من به ألمُ ..» وبعد صراع طويل بين الرغبة المتدفقة في النفس لقراءة الكتاب، والخوف من الغوص في دوّامة الجرح والذاكرة، والتي امتدّت فترة زمنية لا بأس بها تمكنت من اقتحام حاجز الخوف وتلبية نداء الرغبة، ولم يتحقّق لي ذلك إلاّ عندما اتضح لي أن ما أحمله في أرض قلبي ما هو إلاّ نهر جرح صغير، لا يقارن مع هذا المحيط الضخم من الجراح التي تفيض بها أرض الوطن.

هنا يا والدي وقفت .. ومن هنا بدأت .. وهناك أغمضت عيني بقوة حابساً دمعاً لم تتمكن جدران الجفون من كفكفة سيله، وهناك أحسست فعلاً بعظمة جرحك، جرحي وأنت تحمله بين راحتيك دامياً نازفاً موجعاً وتمضي في الدرب بكل شموخ، فتأكّدت من أني لا أحمل بين راحتي قلبك الكبير، فضممته إلى صدري ورحت أعيد عليك من جديد ذلك القول الذي قلته لك من قبل، ولكن هذه المرّة بإيمان حقيقي كامل وقناعة تامّة، قلت: أنّ هناك فرقاً كبيراً بين من يتخذون المبدأ مهنة أو وظيفة تكفل لهم موقعاً مرموقاً ودخلاً محترماً، فيكونون عبئاً كبيراً عليه، ومن يكون المبدأ رسالة لهم يؤمنون بها ويصونونها في حدقات عيونهم .. يعيشون معها لو كان موطنها النار، ويرفضون الابتعاد عنها حتى لو كان في البعد جنّة .. قرأت يا والدي نبض كلماتك .. نبض قلبك .. فعرفت أنّك لم تكن تكتب لا هنا ولا هناك، بل ترجمت بصدق النبض، هتاف الجرح إلى أغنية ونسجت من وخزات الألم نداء أمل يهدي إلى الطريق ويحذر من وعورتها .. واتضحت لي مساحة الفرق بين من يغني سمفونية جرحه بنفسه، ومن يتغنّى الآخرون بجرحه، رغم هذا فلا مقارنة قطعاً بين من يتغنّى بجراح الآخرين ومن يرقصون على الجراح ..

والدي الحبيب ..

وكما تعلم لست كاتباً أو ناقداً بالمعنى الحرفي للكلمة، وإن علمتني أكاديمية الحياة أن أقرأ الكلمات وما وراءها، ولكنّي لم أتوقع أن يكون تأثّري بهذه الشدّة، فتساءلت عن السبب، ألأني قريب جداً من موطن الجرح؟ أم لبراعتك في تحويل هذا الجرح بكلّ أبعاده الأسرية والإنسانية والاجتماعية والسياسية إلى أغنية هي بحدّ ذاتها رسالة تستحقّ أن تأخذ مكانها بجدراة في ذاكرتنا كشعب .. أم لأنّ هذه الرسالة كانت بمثابة شاهد عيان صادق على مرحلة الضباب التي جعلتنا نستبدل الحجارة بالورد وأغصان الزيتون، والعيب في ذلك وضعها في غير مكانها الصحيح، ومن هنا جاء تمرّد البراءة فيّ على التكتيك العربي وقرّرت الخروج من الضباب إلى الوضوح.. فكنت بارعاً في تحليل البعد العقلي والنفسي الذي جعلني أقررّ العودة إلى ما هو أكثر فاعلية ملائمة من الحجر لطبيعة الحال المعيش، هكذا يا والدي ربّيتني أن أكون واضحاً، صادقاً ومؤمناً بالسلام الذي فيه حياة للجميع وليس للوحش على حساب الضحية، فقرّرت أنا بدوري أن أبقي «نزار» على حاله، وأن يكون نفسه .. وهنا خالف فعلي واقع تلك اللحظة، لكنّه كان منسجماً بالمطلق مع روح التربية، ولم يكن خيانة، فكما قلت أنت: ليس كلّ فعل معاكساً أو مخالفاً للواقع خيانة .. أعلم أنّ قراري صعب ومؤلم وكان له من النتائج ما زاد الجرح اتساعاً ونزفاً، ولكن هذا، أيضاً، ينسجم بالمطلق مع حقيقة أنّ من له قضية سامية يؤمن بها، فحتماً سيكون صاحب جرح بطول المكان وعمق الزمان.

والدي الحبيب ..

وتذكرت عند قراءتي أغنية هذا الجرح سبابة بلال ولسانه اللاهج بوحدانية الله وهو ملقى على رمال مكة في حمّارة القيظ والسياط تمزّق جلده، والصخرة تجثم على صدره دون نتيجة .. والنتيجة سارت مع حتمية التاريخ القائلة

بانتصار الحق وليس أدلّ على ذلك من أن تاريخنا الإسلامي نقل لنا بفخر واعتزاز سيرة ذلك العبد الذي آمن وثبت على إيمانه، فانتصر في الدنيا واقتصاصاً وتاريخاً، وانتصر في الآخرة وفق وعد الله عزّ وجل له وللمؤمنين أمثاله ..

والدي الحبيب ..

لم تتحدث عن خصوصية جرحك (جرحي) الذي هو أصلاً أبعد ما يكون عن الخصوصية، بل نثُت بوضوح تحت ثقل الجرح العام، غنّيت الجرح، وبعثت الآمال المنسجمة مع سنن الكون والحياة .. وظهر في رسائلك نبض الإنسان وعمق الفكرة، وغرابة الواقع، وواقع الغربة للمبدأ وأهله .. حاكمت هذا الواقع وقسته بميزان الحج «محمد» وتمرّدت على منطق الحجة «خديجة»، وكما في الواقع العملي تماماً ختمت رسائلك هذه بربط أحد شرايينك مع شرايين الأسرى الذين لم يرصدهم روّاد صناع السلام على امتداد السنوات الماضية بفعل الضباب، فأقرنت يد «أبو السكر» المعتقل في السبعينيات بيدي وأنا المعتقل في زمن السلام! وكأنّك ترسم بذلك حدود الصواب وحدود لخطأ وكذلك حدوداً الخطيئة نقلاً عن واقع الحال المرير.

والدي الحبيب ..

كتابك (قلبك) يحمل الكثير من المعاني، وهكذا ترك لكلّ قارئ أن يفهم ما يريد .. وأنا بالطبع بخلاف كلّ القرّاء، هم قرأوا كلماتك وأنا قرأت نبض قلبك الكبير .. ولكنّي أظلّ أصغر من أي اعتذار تقدمه لي، مع هذا رأيت في هذا الاعتذار أنه اعتذار جيل الآباء للأبناء، أو هكذا يجب أن يكون على الأقلّ .. الآباء على مختلف مستوياتهم الفكرية والثقافية والسياسية وغيرها .. وقبل أن نفترق أوّد القول إنّك قلت الكثير، لكنّك لم تحسم الأمر بوضوح، فما زال الضباب يا والدي قاتماً يعيق الرؤيا ويجعل من التنبؤ بالمستقبل القريب عبثاً، فهل تعتقد أنه سيكون بلون رمادي محبط إلى أجل بعيد بالنسبة إلينا كجيل؟ .. أم ماذا؟

وفي النهاية أهديك هذه الخاطرة الشعرية:

يا والدي طال الزمن وضفاف جرحي نازفة

يا والدي جرحي وجرحك توأمان

أو ما سمعت هتافه، فيه الألم فيه الأمل

يعني العزيمة لا الوهن ..

ولدك المحب

نزار التميمي / أبو سمير

سجن عسقلان – 12/5/2001

* هذه الكلمات كتبت منذ فترة طويلة، مع بداية الانتفاضة المباركة، ولم أتمكن من إرسالها إليك، فآمل أن تلاقي استحساناً عندك، وعذراً على تأخّر وصولها ..

* لا أعرف إن كنت ستتمكّن من زيارتي هذه المرّة .. واسمح لي أن أطلب منك عدم القدوم إلى لزيارة حتى تهدأ الأمور قليلاً، لأنّي بصراحة لست مطمئناً لقدومك، فالآخر لا يؤمن جانبه.

وإلى لقاء آخر قريب